

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 136 - 156
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

القصور الصحراوية بالجزائر صورة للإبداع الهندسي

يمينة بن صغير حاضري
قسم العلوم الإنسانية المركز الجامعي غرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

مقدمة:

تعد القصور الصحراوية من الشواهد المعمارية التي تميز جنوب شمال إفريقيا بصفة عامة والجنوب الجزائري بصفة خاصة بطابعها المعماري المميز، والتي شكلت مع الزمن خط سير تجاري جد مهم عرف عند المؤرخين بطريق القصور، وكمراكز سكنية عرفت عبر تاريخها الطويل العديد من التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية لتصل إلى الصورة التي هي عليها اليوم.

وتعتبر دراسة القصور الصحراوية من المواضيع الجادة التي بدأت تستقطب اهتمام الباحثين في شتى العلوم (الاجتماع، الاقتصاد، الهندسة، التاريخ، الأثار... وغيره)، لأن وجود هذه التجمعات السكنية لم يكن بمحض الصدفة ولكنها منتوج لعبقرية الإنسان الصحراوي وخبرته ومهارته لسنين طويلة ارتبط فيها القصر بالماء، والأمان، وواحات النخيل، والإنسان.

والغرض من كل هذا هو التعرف على هذه التجمعات المعمارية الصحراوية ودراستها والاستفادة من خبرات الأجيال السابقة، ووصف تركيبتها لفهم طرق استقرار إنسان الصحراء في هذه التجمعات السكانية القديمة ومقاومته لقساوة المنطقة فما المقصود بمصطلح القصر، وأصوله التاريخية، وما العوامل المتحكمة في تأسيسه.

أولا: تعريف القصر:

إن مفهوم كلمة القصر كما ورد في لسان العرب « هو المنزل، وقيل كل بيت من الحجر قرشية، سمي بذلك لأنه تقصر فيه الحرم أي تحبس وجمعه قصور وفي التنزيل العزيز، ويجعل لك قصورا، والمقصورة الدار الواسعة المحصنة وقيل هي أصغر من الدار ... »(1).

كما يعرف أنه ما شيد من المنازل وعلا وجمعه قصور. (2)

ونفس المفهوم لدى عامة الناس فلفظة قصر تعني مقر الخليفة أو الحاكم كما أنه مكان سكن علياء القوم وأغنيائهم، وقد امتازت هذه القصور بفخامة بنائها وحسن تخطيطها وروعة

زخرفتها وذلك لما كان يوليه الحكام والأمراء من اهتمام بها وتنافس فيما بينهم فبنو قصورهم في الحضر كما بنوها في البوادي والصحاري أشهرها قصير عمرة وقصر خربة المفجر.[3]

أما القصر بالصحراء فإن له مفهوم مغاير يمكن معرفته من خلال ما اتفقت حوله الدراسات الحديثة بأنه « الفضاء المشترك المغلق والمقسم إلى مساحات موزعة توزيعا نوعيا، والذي تخزن فيه مجموعة بشرية ذات المصلحة الواحدة محصولها الزراعي الموسمي، وتستعمله وقت السلم لممارسة نشاطاتها التربوية والطقوسية والاجتماعية والتجارية ووقت الحرب للاحتماء به عند هجوم العدو ».[4]

فالقصر بصحراء المغرب الإسلامي صورة للإبداع الهندسي البربري الذي يبدأ تقريبا من حمص بالقطر الليبي أي على بعد 100 كلم شرق طرابلس ومنها سالكة جنوبا غربا مسلك جبل نفوسة مارة بغريان فيفرن، فجادوا فكاباو، فنالوت ثم تتجه نحو تطاوين، فمطماطة بالجنوب التونسي قبل أن تتجه غربا نحو منطقة وادي سوف، ومنطقة وادي ريغ، ومنطقة وادي مية ثم نحو منطقة المزاب فمنطقة الجنوب الغربي الجزائري، ومنها يتواصل هذا الخط باتجاه أقصى المغرب[5]. فهو عبارة عن تجمع سكاني مقسم إلى مجموعة من الأحياء الخاصة بكل قبيلة أو عرش تربط بينها مجموعة من الشوارع الضيقة والملتوية القليلة التعرض لأشعة الشمس والتي تلتقي في ساحة عامة (رحبة).

ويحيط بالقصر سور سميك محصن بأبراج معززة بشرفات ويحيط بالسور خندق عريض عميق يتم اجتيازه بواسطة أبواب متحركة مصنوعة من خشب النخيل مثلما هو الحال في كل من قصر تقرت وقصر ورقلة، وقصر الحجيرة، وقصر تمرنة القديمة، وقصر نقوسة بالجنوب الشرقي، وقصور تمنطيط بالجنوب الغربي، في حين قد يعوض السور أحيانا بالجدران الخارجية للبيوت والتي تشكل نتيجة تلاحهما سورا حقيقيا وقد تجلت هذه الظاهرة في كل من قصر تمرنة الجديدة وقصر تماسين (بوادي ريغ) وقصر تاجموت بالأغواط،ويتوسط كل قصر قصبة خصصت لإقامة الحاكم مع عائلته زودت بدورها بسور معزز بأبراج وشرفات.

والملاحظ بالصحراء الجزائرية وبالجنوب الغربي خاصة مجموعة من القصور عرفت باسم واحد مثل قصر تمنطيط بأدرار، وقصر تيميمون، وقصر توات مع العلم أن لكل قصر من هذه القصور قصبته[6]، وقد أطلق على هذه القصور تسميات مختلفة ارتبطت بعدة معاني فوجد القصر الذي ينسب إلى ولي صالح كان له الفضل في وجوده واستمراره كقصر سيدي عمران، وسيدي خالد، سيدي راشد، سيدي يحي ... وغيره، أو إلى اتجاهات معينة كالقصر الظهراوي (الشمالي)، والقصر القبلي (الجنوبي)، أو إلى قبيلة معينة كقصر أولاد موسى وقصر ورقلة، وقصر بني عباس، أو إلى صفة دالة على موقعه أو قدمه كالقصر القديم، القصر الكبير، القصر التحتاني،القصر

الفوقاني أو نسبة إلى لون مادة بنائه كالقصر الأبيض والقصر الأحمر[7].

وقد يختلف قصر عن قصر ولكنه اختلافا طفيفا يظهر في التخطيط العام أو في مواد البناء المستعملة أو في وجود أو عدم وجود بعض العناصر المعمارية وذلك يرجع إلى عدة عوامل متحكمة في تأسيس وتخطيط القصر.

ثانيا: الأصول التاريخية للقصور الصحراوية وتنميطها:

عرفت شمال إفريقيا بوجود ما يسمى بمخازن الحبوب المحصنة بالمناطق الجبلية خاصة، وهي عبارة عن مخازن جماعية فرضتها العادات القديمة المشتركة تحت اسم القصر أو القلعة أو أغادير، نصبت على شكل كتل مباني ضمن بعض الجبال المحاذية للصحراء، منها ضمن منازل القرى وأخرى منعزلة بأعالي قمم الجبال[8].

ومخازن الحبوب المحصنة عبارة عن مباني بها العديد من المخازن المتراكبة أين تخزن العائلات مؤونتها، وتفتح هذه المخازن على فناء داخلي في غالب الأحيان ضيق يفتح على العالم الخارجي بواسطة باب وحيد والملاحظ هو اختلاف التسميات في أرجاء شمال إفريقيا فهي تعرف بمنطقة الأوراس بالعربية بالقلعة وبالبربرية "أكليمت"، وبالمغرب الأقصى بأغادير وأحيانا إغرام، وكلا الكلمتين بربرية، أما بالجنوب التونسي فتسمى قصر "تيمدلت"[9]. (ش 01، 02).

وربما هذا ما جعل معظم الدارسين لتاريخ القصور القديمة يعرفونه كما سبق الذكرمن وجهة اقتصادية بأنه « الفضاء المشترك المغلق والمقسم إلى مساحات موزعة توزيعا نوعيا والذي تخزن فيه مجموعة بشرية ذات المصلحة الواحدة محصولها الزراعي الموسمي، وتستعمله وقت السلم لممارسة نشاطاتها التربوية والطقوسية والاجتماعية والتجارية ووقت الحرب للاحتماء به عند هجوم العدو »[10]، ومنه يمكن القول بأن فكرة إنشاء القصور نابعة من تحصين أنفسهم ومؤونتهم من الأعداء.

وهذه القصور أو ما يشبه القلعة أو أغادير عبارة عن مباني أصغرها يتكون من خمسة عشر إلى خمسين مخزن وأكبرها ما بين مائة وثلاثمائة تأخذ شكلا مستطيلا أو مربعا حددت أبعادها من 5م إلى 4م على 201م إلى 7م، وقد بنيت هذه المخازن من عدة طوابق تتراوح ما بين الثلاثة والستة يتم الصعود إليها بواسطة سلم من جذوع الأشجار، ففي هذه المخازن كان القرويين والجبليين البربر يخزنون مؤونتهم المكونة في الغالب من القمح والتمر والتين والزيت والزبدة والملح والصوف وحتى لباس المناسبات والحلي والأواني الثمينة، ومن الطبيعي أن يكون هناك تنظيما للعلاقات الجماعية المشتركة فكل مخزن ملك لشخص معني يحتفظ بمفتاحه ولا يمكنه البيع أو الشراء إلا داخل هذه المجموعة حفاظا على هذه الروابط.[11](ش 01، 02).

وتعتبر هذه المنشآت نوعا من المباني العامة التي يتم بناؤها بتجمع رجال الجماعة وبإذن من ذوي الأمر بالقرية.

وبما أن لكل فرد من هذه الجماعة مخزن خاص فإنه لزام عليه أن يعتني به ويحافظ عليه من تسرب المياه أو أي خلل يحدث للمبنى نتيجة الحروب أو أي حادث أخر لأن سلامته مرتبطة بسلامة المخازن الأخرى.

وفي الحالات العادية يحرس مدخل هذه المخازن حارس يقيم مع عائلته بها، ويتقاضى أجرا من المواد المخزنة من طرف كل مستخدم، وفي حالات الخطر يساعده في الحراسة رجلين أو ثلاثة، فهذا المبنى العام ليس مجرد مخزن، ولكنه مكان حصين يحتمي به الأهالي في حالة الحروب فالإضافة إلى وجود الغذاء وجد به خزان مائي ومكان للحدادة مما يمكنه من الصمود أمام أي حصار لمدة طويلة، ولهذا الغرض عزز المبنى بوسائل دفاعية تمثلت في الجدار المتصل والذي يشكل السور المزود ببرج أو برجين بها كوات صغيرة.

وهذه المباني العامة ليست مجرد نموذج للقرى القديمة ولكنها أيضا رمزا للاستقلال والازدهار الاقتصادي لهذه الجماعات، وزيادة في أهمية هذه المباني أصبحت تشكل مكان خاص لتجمع رجال القرية لمناقشة أمورهم الهامة[(12)].

وبالرغم من تشابه هذه المخازن من حيث الوظيفة إلا أنه يمكن إيجاد العديد من النماذج المختلفة، وذلك حسب الموقع الذي تحتله، ومواد البناء المستعملة، ونمط حياة هذه الجماعة ومدى أهميتها. (ش 01، 02)

فالقلعة بالأوراس بنيت من الحجارة والخشب لتوفرها بالمنطقة، في حين بنيت قصور الجنوب التونسي، وجبل نفوسة، وليبيا والجنوب الجزائري بشكل متميز عن الأغادير أو القلعة من خلال تقنية البناء إذ أن المخازن تعرف هنا بالغرف وهي مغطاة بسطح مقبب يتكون من طابق إلى ثلاثة طوابق تحيط بفناء واسع أين يجمع الرعاة ماشيتهم كما استخدم بعضهم الطابق الأرضي كمحلات أو مكان للسكن، وكل فناء تحيط به غرفة يحتل جزء من القصر ليشكل نسيجا معماريا متشابكا، فقصر نيران بليبيا عبارة عن فناء دائري يحيط به طابقين أو ثلاثة من الغرف المقببة كان في السابق مكان للسوق وفي نفس الوقت مخزن للمؤونة وحصن منيع للسكان والماشية [(13)].

وإذا تساءلنا عن سبب وجود هذا النوع من المباني عند بعض الشعوب ؟ تكون الإجابة بأن ضروريات الحياة المتمثلة في تخزين محصولها خاصة الحبوب هي التي أوجدت ذلك[(14)]، وهذا نتيجة سببين اثنين، أولهما طبيعة المنطقة فالمحصول الغير منتظم نتيجة قلة الأمطار في الخريف وبداية الربيع والرياح الجافة (الشهيلي، الشرقي) جعلت من المحصول قليل أو منعدم في بعض

الأحيان، ولهذا فإنه في سنوات الخير يتم تخزين المحصول بكميات وافرة مادامت هذه القصور بإمكانها استيعاب كميات معتبرة من المنتوج لأوقات القحط، وبما أن سكان الأوراس حينها بدو رحل أكثر منهم حضر فإنهم يبتعدون عن أماكن إقامتهم الثابتة لرعي ماشيتهم، في حين يتركون جزء من مؤونتهم في هذه المخازن وتعزز عليها الحراسة(15).

ويمكن اعتبار هذا النوع من العمائر الإفريقية الشبه صحراوية لأنه لا يوجد بالسهول الشمالية، فربما يعود ذلك إلى تلاشي أسباب وجودها كانتظام المحصول الزراعي نتيجة الظروف الطبيعية الملائمة.

ومن خلال ما ورد ذكره يمكن القول بأن فكرة القصور القديمة بشمال إفريقيا خلقتها الحاجة الطبيعية للإنسان للتمكن من العيش في الخط الفاصل بين الشمال والجنوب، وربما كان هناك توسع للرقعة الجغرافية المتواجدة بها باتجاه الصحراء نتيجة الوحدة البشرية بين سكان الصحراء الشمالية الشرقية وسكان التل والتي لم تعرف حدودا، ذلك أن قبائل الجيتول قديما كان بعضها يستوطن الأوراس والبعض الآخر يجوب الصحراء الشمالية الشرقية والسهوب(16).

كما كان للأوضاع السياسية التي عرفتها هذه المناطق في العهد الروماني أثر في ذلك، فالصراع القائم بين البربر والرومان جعل الصحراء منفى لهذه العناصر، ومن الطبيعي أن ينقلوا معهم أفكارهم المعمارية بما يتلاءم وطبيعة المنطقة الجديدة(17).(خريطة 01)

فكانت هذه القصور صورة للإبداع الهندسي البربري الذي يبدأ تقريبا من حمص بالقطر الليبي أي على بعد 100 كلم شرق طرابلس ومنها سالكة جنوبا غربا مسلك جبل نفوسة مارة بغريان فيفرن، فجادوا فكاباو، فنالوت ثم تتجه نحو تطاوين، فمطماطة بالجنوب التونسي قبل أن تتجه غربا نحو منطقة وادي سوف، ومنطقة وادي ريغ، ومنطقة وادي مية ثم نحو منطقة المزاب بالجنوب الجزائري، ومنها يتواصل هذا الخط باتجاه أقصى المغرب(18). (خريطة 04)

وما يمكن ملاحظته أن مسلك تواجد القصور الجنوبية يمتد على الخط الذي وضعه الرومان (Limas) للتصدي للهجومات البربرية ومراقبتهم وكأن هذه القصور وجدت لتمكن البربر من الوقوف في وجه الأعداء فالقصور هنا وجدت لغرض دفاعي لما تحتويه من وسائل تحصين ارتبطت بها معظم القصور الصحراوية من سور وخندق وأبراج وتخطيط داخلي متشابك بحيث أن اللاجئ إلى هذه القصور يمكنه الصمود لمدة طويلة أمام العدو لما يحتويه القصر من غذاء وماء، فلهذا يلاحظ ذلك التماثل المعماري بين مختلف هذه القصور مع اختلاف بسيط لا يمس بالغرض المنشود، فمثلا بالجنوب الشرقي عوضت غرف التخزين بمطامير مبنية بإحدى زوايا الغرفة أو بما يعرف بالخابية أو البايو ببعض القصور (تماسين) بشرط أن تكون الأرضية ومكان تواجدها مهيأ ومناسب للتخزين، في حين استعملت الغرف للسكن، بحيث يفتح كل منزل على

شارع ملتوي ومغطى في أغلب الأحيان يؤدي إلى خارج القصر عن طريق باب أو بابين أو أكثر، في حين أنه بقصور الجنوب الغربي تمنطيط، وتوات ...، استمروا باستعمال الغرف ككل كمخزن للمؤونة بمعطياتها القديمة وذلك لانعدام هذا النوع من المطامير.

وتظهر لنا خبرة البربر ومعرفتهم للبلاد من خلال بناء هذه التجمعات في مناطق مرور القوافل ليتم تزويدها بما تحتاجه من منتوجات لتصبح مع الوقت مركزا مهما لهذه القوافل كما أصبحت هذه القصور مكانا لتخزين المنتوجات للقبائل البدوية الرحل أو المقيمة على حدودها وهذا ما يمكن ملاحظته بالعديد من القصور الصحراوية بجنوب ليبيا(19) والجنوب التونسي(20) وجنوب المغرب الأقصى(21).

وبالحديث عن الأصول التاريخية للقصور تطرح إشكالية تنميط هذه القصور لأن بعض الباحثين اعتمدوا في تنميطهم على شكلها الخارجي منهم المؤرخ مارتان (**A.G.P Martin**) الذي يعد من أقدم من نمط القصور القديمة بالصحراء إذ نمطها اعتمادا على شكلها إلى ثلاثة أنواع النوع الأول سماه "الجيتولي" والذي أرخه من ما قبل التاريخ إلى ستة **100**م وقد أدرج ضمن هذا التنميط كل من قصر تاوريت برقان، وعيزان وتالبو، أما النمط الثاني فقد سماه "اليهودي" والذي أرخه من **100**م إلى **600**م وهو يتكون من سور شبه دائري بني من حجارة مسطحة مرتبطة بشكل أفقي جد منتظم وقد أدرج ضمن هذا النمط كل من قصر مكبد وتازوت، أما النمط الثالث فإنه يشمل معظم القصور المشيدة بعد القرن السابع ميلادي(22).

وما تجدر الإشارة إليه أن هذا التنميط لم يخضع لأي عمل ميداني لأن ماركان مؤرخ أكثر منه مهندسا أو عالم آثار.

وبالإضافة إلى هذا التنميط هناك تنميط آخر على نفس الأساس قام به الكولونال "قونار" (**Quenard**) والذي اعتمد في تحليله على التحاليل السابقة لمارتان مرتكبا نفس الأخطاء إذ نمط القصور الصحراوية إلى ثلاثة أنماط منها النمط البربري الذي يقابله عند مارتان النمط الجيتولي.(23)

واعتمادا على الشكل الخارجي دائما نمط الدكتور عبد الرحمن أيوب هذه القصور إلى ثلاثة أنماط مثله مثل من سبقه مع اختلاف من حيث التسميات إذ وجد النمط المستطيل (البربري)، والنمط المربع (الروماني)، والنمط الدائري (العربي) وسيتضح ذلك من خلال الحديث عن أشكال هذه القصور(24)

ولكن معظم هذه التنميطات تعرضت إلى النقد من طرف إشاليي (**Echalier**) بعد قيامه بدراسة ميدانية لثلاثمائة وثلاثة وثلاثون قصرا (**333**) بالجنوب الغربي سمحت له بتنميطها إلى ستة أنماط وأغلب الأنماط مقسمة إلى نوعين(25) :

1- النمط الأول: يتكون من:

1-أ: عبارة عن مجموعة بنيت على ربوة طبيعية يحيط بها سور من الحجارة المرتبطة بمادة طينية يحتوي على بعض المباني الداخلية.

1-ب: يشبه النوع الأول لكنه أقل حجما.

2- النمط الثاني: والذي يقسم بدوره إلى نوعين:

2-أ: بنيت مباني هذا النوع على ربوة طبيعية من الحجارة مصقولة من طرف الإنسان يحيط بها سور متين شبه دائري أرخها إلى بداية القرن 10م وأخذ مثال على ذلك قصر تيميمون.

3- النمط الثالث: وهو عبارة عن مباني من الحجارة يحيط بها سور مستطيل مبني في مكان عالي طبيعيا أو مهيء بحفر خندق ووسائل الدفاع، وهذه المبانئ في الغالب محمية بأبراج في الزوايا وقد أرخها إلى القرن 13م.

4- النمط الرابع: مباني مبنية من قوالب ملحية والطين المالح ومخططا سابقا رباعي الزوايا وأحيانا جد معقدة.

5- النمط الخامس: وينقسم إلى:

5-أ-: مباني رباعية الزوايا بنيت من حجارة صغيرة يربط فيما بينها مادة طينية وأبراجها ذات زوايا يعود تاريخها إلى نهاية القرن 10م حتى القرن 12م.

5-ب-: يشبه ما سبقه والاختلاف يكمن في وجود أبراج ركنية مربعة أو هرمية.

6- النمط السادس: وينقسم إلى:

6-أ-: مباني رباعية الزوايا بنيت من الطين وأبراجها ذات زوايا يعود تاريخها إلى القرن 15م.

6-ب-: شبيهة بالنوع السابق تعود إلى القرن 15م.

إن التنميط الذي وضعه إشالي (Echallier) لا يخلو بدوره من بعض الأخطاء إذ أن تقسيمه لبعض إلى نوعين لا يبين الفرق الكبير بينهما، كما أن المتمعن والمحلل لما جاء من تنميط يدرك انه يقصد بالقصر القصبة لا القرية وهذا ما قد لا يفي بالغرض المطلوب.

وبما أن تطور ونمو القصور عبر التاريخ تم بطريقة طبيعية فإنه من الصعب في بعض الحالات تحديد حقباتها التاريخية من خلال تنميطها.

والملاحظ أن الاختلاف في تنميط القصور تبعه الاختلاف في تحديد أي الأشكال التي وردت في التنميط أسبق إلى الظهور الشكل المستطيل أو الدائري أو المربع، فبرغم من اتفاق كل

من قونار (**Quenard**) وعبد الرحمان أيوب من حيث تقسيم الأنماط إلى أنهما يختلفان من حيث شكل كل نمط فالنسبة لقونار فإن أو نمط كان عبارة عن حصون بنيت في أعالي الجبال ذات شكل مستطيل، أما النمط الثاني فإنه يضم مجموعة من المباني ذات الشكل المستدير وبهذا يبدو أنه اعتبر الشكل المستطيل الأسبق في الظهور من الشكل المستدير[26].

في حين يرى الدكتور أيوب أن الشكل المستطيل (النمط البربري) هو الأسبق لتشابهه مع دور الكهنة المنحوتة في خدود المرتفعات الجبلية التي تأخذ شكلا مستطيلا في تجاورها، وقد بقي استعمالها مستمرا فيما بعد ومن النماذج على ذلك قصور مطماطة وغمراسن بتونس، وقصور نالوت بليبيا، أما الشكل المربع أو النمط الروماني فإنه مرحلة وسط بين الشكلين يشبه في تخطيطه الحصون البيزنطية، ويعتبر هذا الشكل قليل بالمغرب الإسلامي ومن الأمثلة على ذلك القصر القديم بتونس، وقصر تفيلالت، أما الشكل الدائري فإنه يرجعه إلى القرن **5** هـ/**11**م وهو نتيجة تطور كل من التخطيط المستطيل والتخطيط المربع والذي يتزامن والتواجد العربي بشمال إفريقيا وتظهر إيجابيات هذا التخطيط في محافظته بشكل جيد على المنتوج الفلاحي المخزن[27].

أما إيشالي (**Echallier**) فإنه بعد دراسته الميدانية لثلاث مائة وثلاثة وثلاثون قصرا بالجنوب الغربي وتنميطها إلى ستة أنماط [28] يرى بأن الشكل الدائري هو الأقدم مستندا في ذلك على عدة معطيات منها إمكانية أي بناء مهما كانت قلة مهارته بناء المخطط الدائري لأن الجدار ينغلق على نفسه دون عناء كما أن الشكل الدائري ذو السور المنحني وجد في معظم المجموعات البربرية القديمة بشمال إفريقيا حيث يبدو تطورها بشكل طبيعي، وليس من المستحيل أن تتطور، إن هذا التطور بدأ من مباني أولية تحولت إلى مجموعات قائمة الزوايا أصبحت فيما بعد على شكل منتشر ذو مخطط دائري لتعود مع مرور الزمن إلى المخطط القائم الزاوية الأصلي[29] .

ثالثا: العوامل المتحكمة في تأسيس وتخطيط القصور:

يمكن حصر هذه العوامل في مجموعة من المعطيات تمثلت في ما يلي:

1) العامل الجغرافي: إن العامل الجغرافي يعني دراسة المكان باعتباره سكنا للإنسان فعناصر هذا المكان لا تستمد أهميتها إلا بقدر علاقتها به ليتحدد العامل الجغرافي باختيار الموقع المفضل ذو المناخ الحسن من اعتدال المكان وجودة الهواء وسعة الماء والقرب من المرعى والاحتطاب وتوفر المنتوج الغذائي[30]، إذ يعتبر الموقع نقطة جد حيوية بمعناه الطبيعي والبشري فهو أهم عنصر جغرافي مؤثر على القصر وقلب العوامل الجغرافية، فالمواد المادية والبشرية للموقع هي الطاقة الحقيقية لأي تجمع سكاني[31] فقد بنيت هذه القصور على ضفاف هذه

الوديان الجوفية لما توفره من مياه باطنية كوادي ريغ، وادي مية، وادي سوف، وادي ميزاب، وادي الساورة، ونفس الظاهرة لوحظت في معظم المدن القديمة التي بنيت على ضفاف الأنهار وذلك لما كان يشكله الماء من أهمية في حياة أي تجمع سكاني.

كما يوفر الموقع خامات البناء والتي تعطي السمة العامة لأي قصر من القصور فتوفر مادة الطين في كل من منطقة وادي ريغ ووادي مية دفعت بالبناء إلى كثرة استعمال هذه المادة التي أصبحت الصفة السائدة لهذه القصور في حين بنيت قصور وادي ميزاب بالحجارة لتوفرها بالمنطقة ونفس الشيء فيما يخص كثرة استعمال عصي، وخشب أشجار النخيل في البناء لتوفر هذا النوع من النبات بالموقع نتيجة تأقلمه مع المناخ السائد. في حين استعملت أخشاب بعض الأشجار بشكل محتشم لقلتها كشجر الرومان، وشجر المشماش.

وما تجدر الإشارة إليه أن مواد البناء المتوفرة بالموقع تتلاءم والمناخ السائد بهذه المناطق سواء المادة الطينية أو الحجارة الجيرية من حيث توفيرها للبرودة صيفا والحرارة شتاءا[(32)].

وبطبيعة الحال انعكست نوعية المواد المستعملة على تقنيات البناء والتي دفعت بالبناء الصحراوي إلى محاولة إيجاد أنجع التقنيات المناسبة لاستعمال هذه المواد بشكل أسهل ولا يتوقف دور الموقع الجغرافي لأي تجمع سكاني فيما سبق بل يتعداه إلى تحديد شكل القصر (دائري، مستطيل، مربع، ...) وحتى مراحل تطوره من حيث طبيعة الموقع والحواجز المحيطة به والتي قد تقف عائقا في وجه تطوره، فالمدن التي تقام محصورة بين ضفة نهر أو واد وتلال أو جبال يكون شكلها طوليا كمدينة البصرة وسامراء، في حين يساعد المكان الواسع الخالي من أي حواجز على أي اختيار الشكل المطلوب[(33)].

أما المناخ فيكمن دوره في تمييز هذه القصور من حيث تخطيطها الداخلي الذي يتلاءم وما يتعرض له من رياح رملية ورياح حارة وحرارة مرتفعة صيفا ومنخفضة شتاءا، فكان هم الإنسان القصوري في الأول وفي الأخير إيجاد السبل المثلى التي تمكنه من الاستقرار والاستمرار في هذه المناطق فكان التخطيط العام يوجه في الغالب جنوب شرق[(34)]، كما امتاز التقسيم الداخلي بضيق والتواء الشوارع وتلاصق المباني وهذا ما يتماشى والظروف الطبيعية ونفس الأمر بالنسبة لمواد وتقنيات البناء المستعملة كما سبق الذكر.

والحصول على منتوج زراعي هو حاجة الإنسان الأولى التي يتوخاها من الموقع الذي يسكنه ويعني هذا وجود مصدر غذائي ثابت يساعد على استمراره[(35)].

فكانت القصور الصحراوية كتجمعات سكنية قد أوجدت لنفسها مع الزمن علاقة قوية مع فلاحة النخيل حتى أصبحت تنسب إليها، إذ تحيط بهذه القصور واحات النخيل التي تعد مصدر رزق جد مهم لسكانها، فمعظمهم ينشطون في فلاحة أشجار النخيل التي تلائم وطبيعة المنطقة

ولما توفره من غذاء ثابت لسكان هذه القصور كما تعتبر مادة جد مهمة للبيع والشراء سواء مع المناطق التلية أو أقصى الجنوب أو مع بلاد السودان[36]. (لوحة 01، 02)

كما يشكل هذا المنتوج الزراعي حاجزا في وجه الرياح التي تعصف بالمناطق الصحراوية على طول فصول السنة، لتقلل أيضا أشجار النخيل من نسبة ارتفاع المياه بهذه القصور، فما تعانيه القصور اليوم من تدهور ما هو إلا نتيجة القضاء على الواحة.

2) العامل الاقتصادي:

أدى العامل الاقتصادي دورا كبيرا في وجود واستمرار هذه القصوربشمال إفريقيا بصفة عامة وقصور الجزائر بصفة خاصة إذ تقع في خط سير القوافل التجارية فكانت كمحطة ومستودعا مؤقتا وسوقا استهلاكية لمنتوجات الصحراء والتل وبلاد السودان، فتشكلت بذلك علاقات داخلية وخارجية جد نشيطة ينظمها خط سير يربط بين هذه القصور عرف مع الأيام بطريق الواحات أو القصور والذي كان ينطلق من تافلالت بالمغرب الأقصى نحو غدامس، ويتفرع من ورقلة وتقرت إلى كل من غاط وتماسين والقليعة والأغواط والزيبان[37]، والذي كان طريق جد نشيط خاصة في موسم الحج، كما وجد طريق آخر يربط بين هذه القصور لا يقل أهمية عن الطريق السابق عرف بطريق الذهب كما سبق الذكر، كان مصدر جد مهم لتدفق الذهب والعبيد والملح ينطلق من تافلالت بإتجاه قصور توات ومنها إلى أقصى بلاد السودان، إذ كان التجار يغامرون للوصول إلى هذه الأماكن رغم المخاطر والمسالك الوعرة لما كانوا يجنونه من أرباح كبيرة في كل سفرية[38]. (خريطة 01، 02)

فكان امتداد هذه الطرق امتدادا لتاريخ المنطقة، وبتحركها تنتشر بذور الحياة إذ أن بقاء هذه التجمعات وازدهارها مرتبط بهذه الطرق، وذلك لما كانت توفره من رزق لأهالي القصر[39]، وأي تحول عنها يعني الفناء وهذا ما حدث بالفعل في السنوات الأولى للقرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي عندما عرفت هذه القصور تحول للطرق التجارية نحو سواحل الأطلس مع اكتشاف الطرق التجارية الجديدة فبدأت هذه القصور في التراجع تدريجيا إلى ما بعد نهاية القرن السابع عشر ميلادي عندما فقدت أهميتها الاقتصادية نهائيا لتبقى مجرد تجمعات سكانية[40]،وقد حدثنا التاريخ عن مدن إسلامية عديدة تدهورت واندثرت بفعل تحول الطرق التجارية عنها ومن هذه المدن تدمر، وبطر والحضر والحيرة[41].

3) العامل الاجتماعي والديني :

إن خصوصية القصر وعلاقة أفراده القوية تظهر من خلال القوانين الاجتماعية التي تربط بينهم خاصة القوانين المعمارية والتي بدت بشكل واضح في بناء المنشآت الدينية والمدنية والعسكرية وفي تخطيط قصورهم بتقسيمها إلى عدة أحياء كل واحد منها ينسب إلى قبيلة معينة

أو عرش معين كبني وقين، وبني سيسين، وبني إبراهيم بقصر ورقلة، ومستاوة، والتليين، والعبيد ... بقصر تقرت[42]، كما تبدو هذه الخصوصية في تفرع الشوارع الرئيسية إلى شوارع ثانوية (أزقة) ودروب مغلقة تخصص لمجموعة من العائلات تربطها نفس صلة الدم إذ تتحرك النسوة بكل حرية وكان الكثير منها يغلق ليلا لمقتضيات أمنية.

وبما أن معظم سكان القصر من الطبقة البسيطة إذا ما لم استثنينا طبقة الحكام وبعض الأعيان فإنه كان لذلك أثره في توجيه عمارة القصر خاصة المدنية منها إذ لا يبدوالفرق واسعا بين بيوت الخواص وبيوت عامة الناس إلا من حيث سعة المساحة والأقسام الإضافية واتساع الغرف وكثرت عددها[43].

وللترابط الكبير بين منشآت القصر كان من الضروري إيجاد متنفس لهؤلاء السكان بإيجاد فضاء واسع تمثلت في مساحات تتوسط الأحياء (رحبة) والساحة التي تتقدم المسجد الجامع والقصبة لتجمعاتهم وإقامة أفراحهم في مختلف المناسبات واتخاذها كأسواق يومية للتزود بما يحتاجونه من منتوجات خاصة الفلاحية منها، كما لا ننسى دور تواجد الإسلام بالمنطقة في تصميم الوحدة المعمارية إذ كان له أثر كبير في تشكيل العمارة الدينية والمدنية إذ أصبح المسجد الجامع العصب النابض في القصر حسب التنظيم المعمول به في مختلف بقاع العالم الإسلامي مع اختلاف طفيف في كونه يتوسط القصر كما عهدناه في المدن الإسلامية[44]، كما امتاز كل حي بوجود مسجد خاص به لأداء الصلوات وتعليم القرآن الكريم وأصول الدين.

وبارتباط سكان القصر بأماكن العبادة بعد انتهاء أشغالهم اليومية زودت شوارع المنشآت الدينية بدكانات للجلوس في انتظار أوقات الصلاة ولمناقشة بعض مشاكل القصر كتوزيع أوقات السقي وحل بعض المشاكل الاجتماعية والتي تعرف في بعض قصور الجنوب الغربي بالجماعة والتي يمكن أن تكون بقرب الساحة العامة[45].

كما يظهر أثر العامل الديني في بناء المقابر خارج أسوار القصر مع تخصيص مساحتها ويجعل لها ما احتاجت إليه من طرق من كل ناحية[46].

لتعرف هذه المقابر بوجود أضرحة للأولياء الصالحين والمشايخ الحكام ربما أشهرها مقبرة سلاطين بني جلاب بتقرت.

أما العمارة المدنية بالقصر فقد تأثرت بالعامل الديني من حيث تخطيطها إذ يراعى فيها ناحية حجاب المرأة كوجود سقيفة تمنع المارة من النظر إلى داخل الدار وأماكن مخصصة للمرأة كما هو معمول به في مختلف بيوت المدن الإسلامية[47].

لتصبح حماية هذا المجتمع وممتلكاته ضرورة حتمية استدعت وجود وسائل دفاعية مختلفة بهذه القصور من أسوار وأبراج وخنادق تحيط بها زيادة في الحماية.

والزائر لهذه القصور يدرك مدى تمكن بناءيها من استعمال مختلف مواد وتقنيات البناء بوسائل بسيطة وحتى الزخارف التي وجدت بها كانت غاية في الجمال والإتقان وهي لا تختلف عما عرف في عمائر شمال البلاد وهذا ما يعطينا دليلا قاطعا على وجود علاقات اجتماعية تربط بين سكان هذه القصور بغيرهم من القصور والمدن مما سهل عملية تبادل الخبرات في مختلف مجالات الحياة.

الخاتمة

– إن ظهور هذه القصور لم يكن بمحض الصدفة أو من نتاج الطبيعة بل هي نتيجة لخبرات آلاف السنين من أجل الاستمرار و البقاء في ظروف طبيعية جد صعبة فرضت تخطيطا معماريا معينا وقوانين اجتماعية مشتركة بين معظم هذه القصور، ويظهر ذلك جليا في كتاب كل من الشيخ الفرسطاني (النفوسي) " القسمة و أصول الأراضين " و كتاب الشيخ الثميني " التكميل لبعض ما أخل به كتاب النيل " .

– إن فكرة إنشاء القصر أوجدتها الحاجة إلى تخزين القبائل البربرية المتنقلة لمنتوجها وحمايته لتتحول مع الزمن إلى أماكن لسكن والاستقرار مع نزوح البربر إلى الجنوب في صراعهم مع الرومان،ليحدث على الفكرة عدة تغيرات و ما يتلاءم و الظروف الطبيعية و الظروف السياسية للمنطقة.

– لا يمكن ربط أي شكل من أشكال القصور (دائري، مستطيل) بأي حقبة تاريخية لأن شكل هذه القصور يخضع إلى مجموعة من المعطيات كطبيعة الموقع والمساحة المحددة، ومدى أهمية هذا القصر ومدى سرعة نموه والجانب الدفاعي، بالإضافة إلى إمكانيات سكانه وقدراتهم، دون أن نهمل ما للشكل الدائري من مميزات أشار إليها أشيولي (**Echallier**)، كسهولة البناء، والدفاع.

– يبدو أثر الطبيعة الصحراوية واضحا في تخطيط هذه القصور وتوجيهها من حيث ضيق شوارعها والتوائها وتسقيف معظمها وبتلاصق بيوتها ومن خلال مواد البناء المستعملة لكثرة تواجدها بالمنطقة وتلائمها مع المناخ بتوفيرها للحرارة شتاءا والبرودة صيفا.

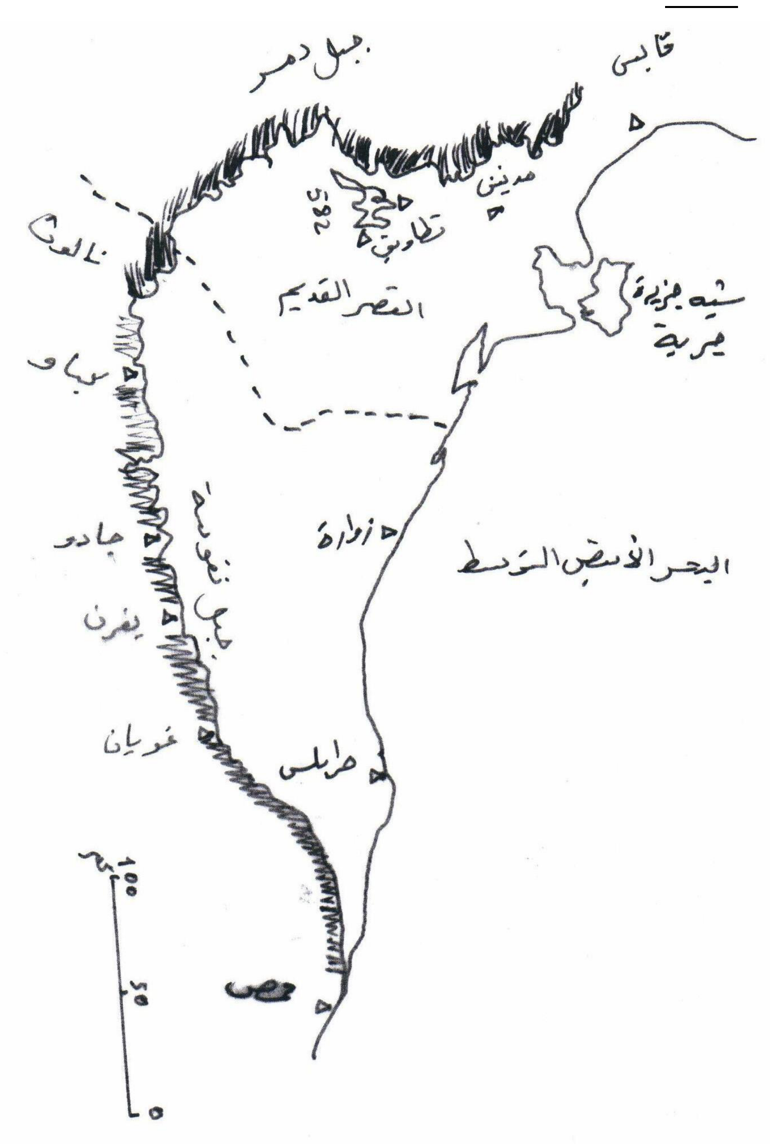
– إن بناء عمارة هذه القصور اعتمد على تقنيات وعناصر معمارية مدروسة تتلاءم وبساطة المبنى والأدوات المستعملة والظروف الطبيعية للمنطقة والتي استطاعت أن تحل العديد من المشاكل المعمارية وما يمكن ملاحظته هو انتشار هذه التقنيات والعناصر المعمارية على طول قصور وادي ريغ، والتي يمكن أن تكون مرجعا لمهندسي اليوم في دراستهم لهذا النوع من العمائر.

– احتوت هذه القصور على معطيات معمارية تبين مدى قدرة إنسانها في محاولته لإيجاد الجو المناسب للعيش حيث البرودة صيفا والحرارة شتاء.

– إن استعمال مادة الطين المتوفرة بكثرة لم يمنع من استمرار هذه القصور لآلاف السنين، ذلك أن العامل الوحيد الذي يهدد وجودها هي الأمطار ولكن لقلتها ساهمت بشكل غير مباشر في بقائها، لكن مع تزايد كميات الأمطار في السنوات الأخيرة تعرضت هذه القصور.

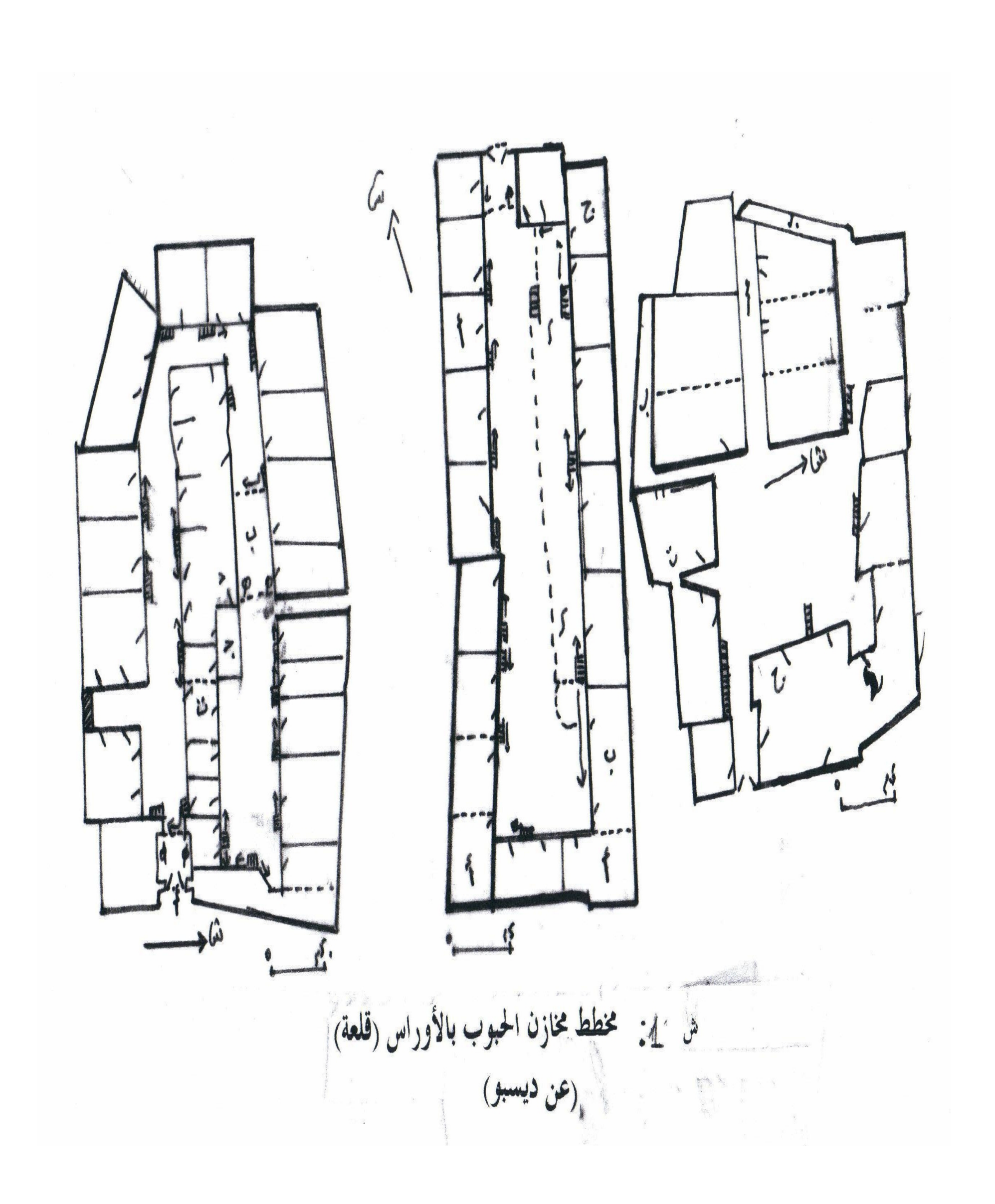
– قد تختلف التسميات ولكن الداخل إلى قصور التوات، كالداخل إلى قصور وادي ريغ كالداخل إلى قصور وادي مية، كالداخل إلى قصور الجنوب التونسي أو جنوب المغرب الأقصى، يغلب عليها نفس الطابع المعماري الذي يمكن الإنسان من العيش في هذه المناطق الصحراوية كضيق الشوارع والتوائها، وتخطيط بيوتها وتوزع مرافقها العامة واستعمال نفس مواد البناء.

ملاحق:

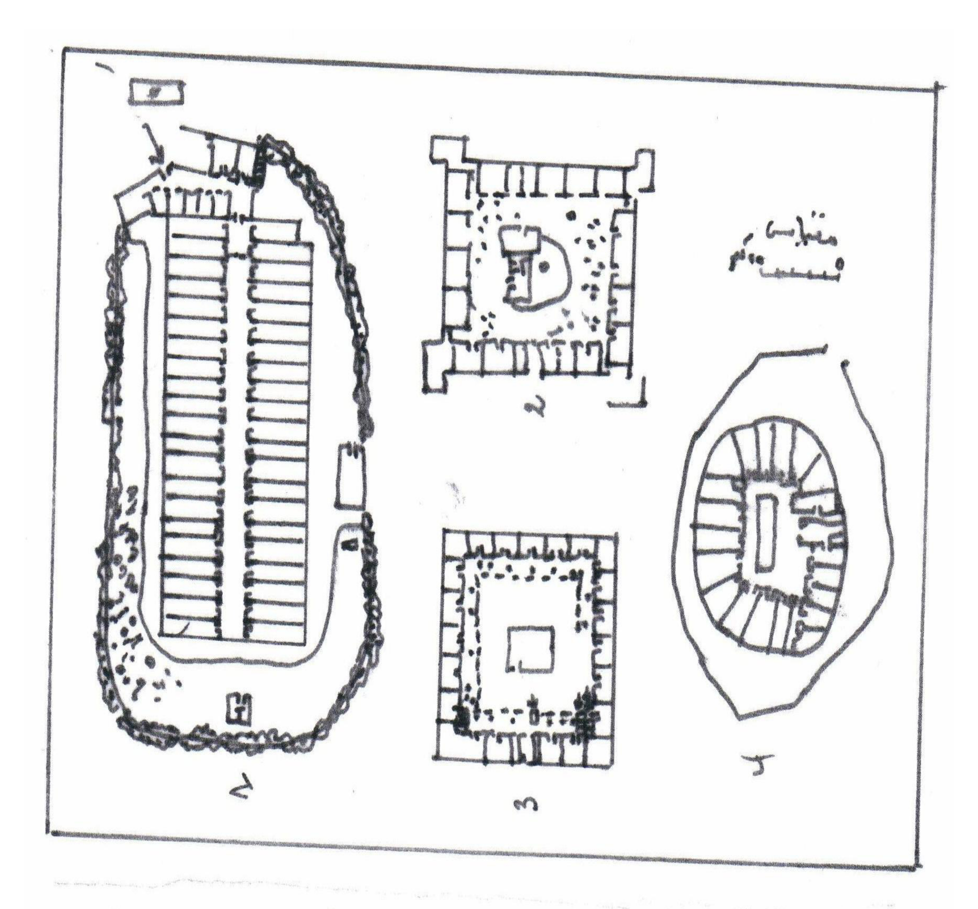


خريطة 1: منطقة القصور الجنوبية في كل من ليبيا والجمهورية التونسية

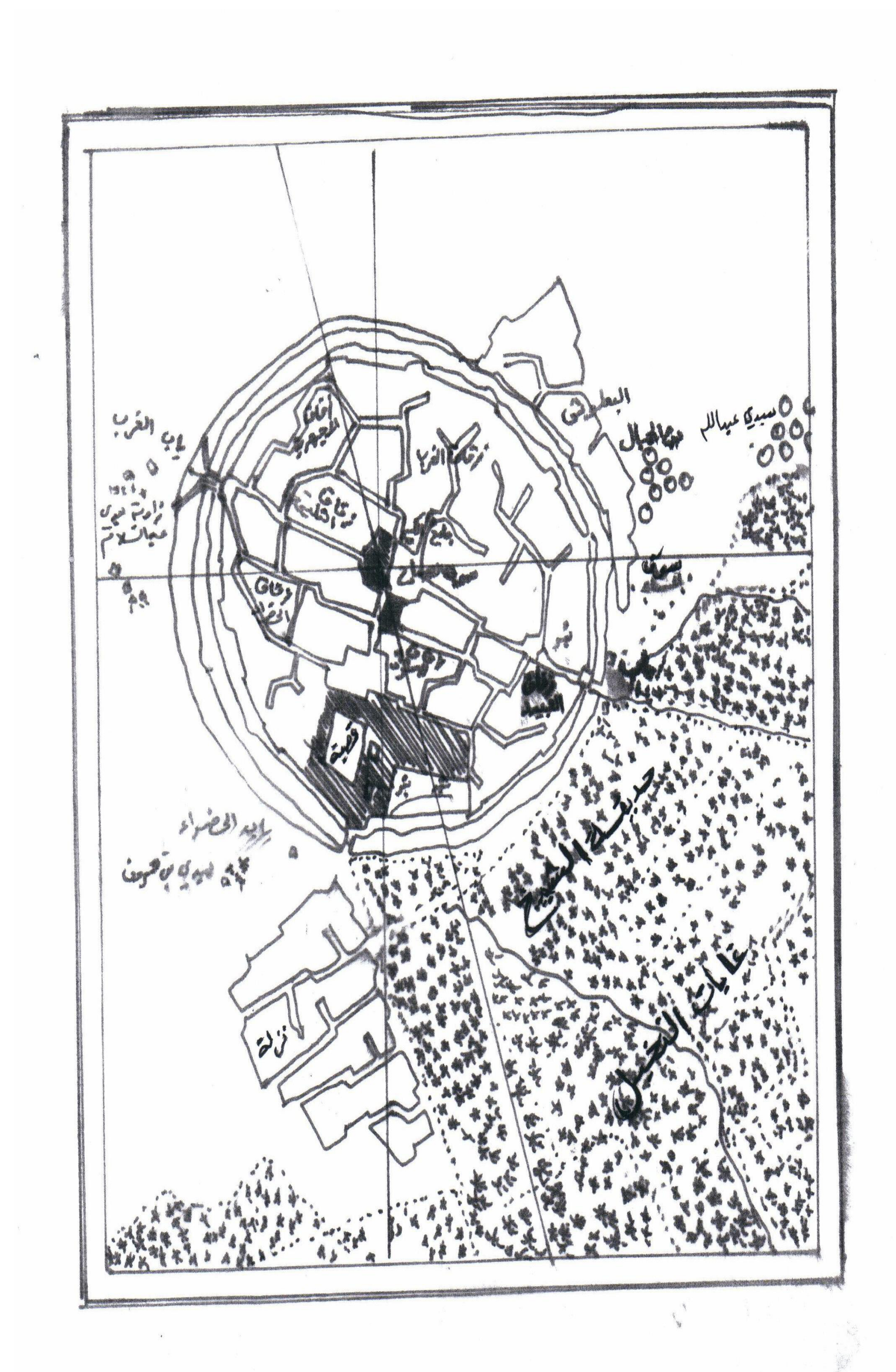
(عن عبد الرحمن أيوب)



ش 1: مخطط مخازن الحبوب بالأوراس (قلعة)
(عن ديسبو)



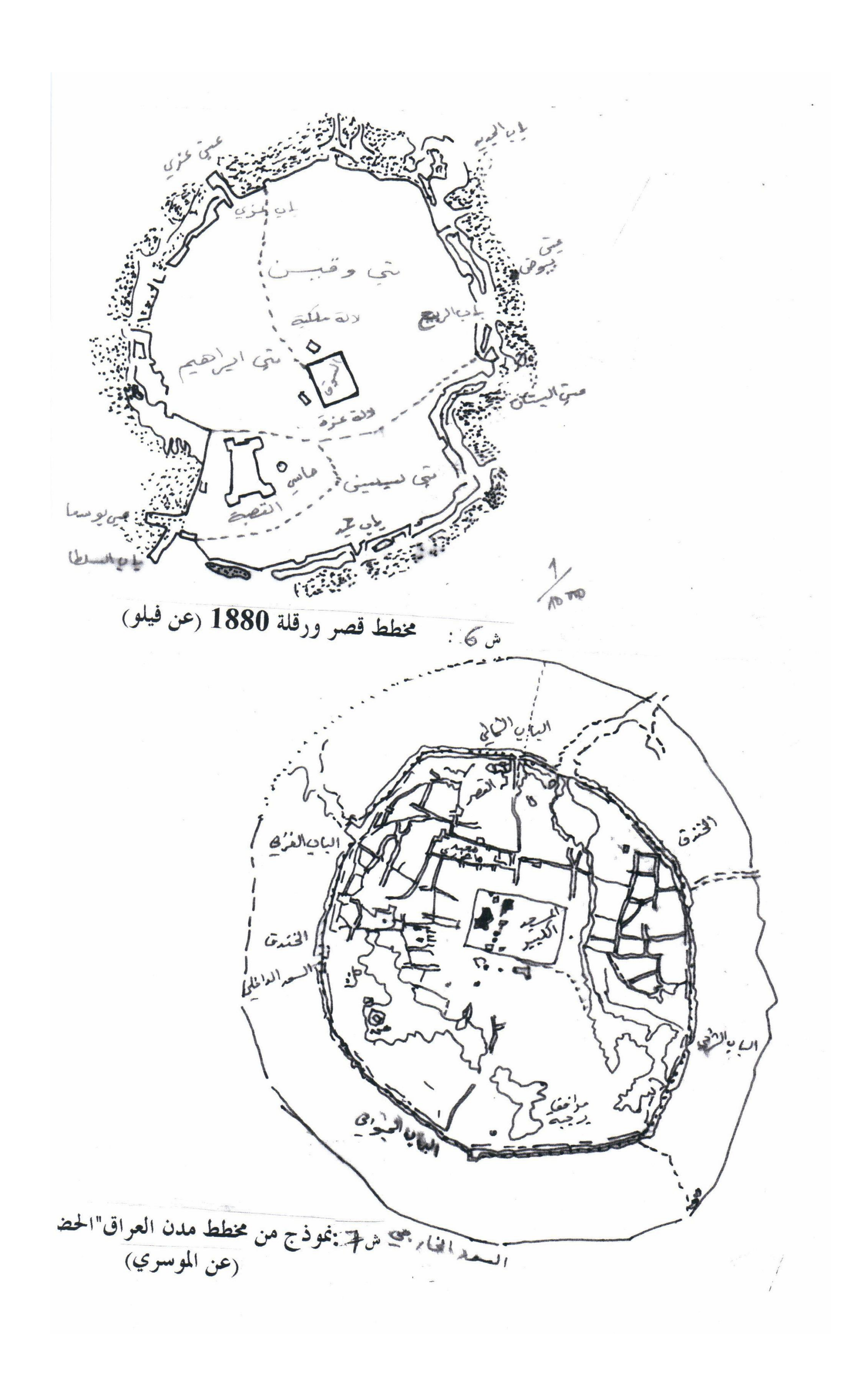
ش : مخطط مخازن الحبوب بالمغرب الأقصى (أغادير) (عن ديسبو)



ش3 مخطط قصر تقرت 1875 (عن لتليو)



ش 5 : مخطط قصر برام (عن نيسون)
(١٩٥٨)



ش 6 : مخطط قصر ورقلة 1880 (عن فيلو)

ش 7 :نموذج من مخطط مدن العراق"الحضر" (عن الموسري)

الهوامش:

([1]) **ابن منظور، لسان العرب، المجلد الثالث (ق.ب)، دار لسان العرب، بيروت، د.ت، ص99–100.**
([2]) **المنجد في اللغة والإعلام، ط 27، بيروت، 1984، ص 633.**
([3]) **ماجد (عبد المنعم)، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، القاهرة، 1963م، ص 120–127.**
([4]) **أيوب (عبد الرحمن)، من قصور الجنوب التونسي، القصر القديم، النقائش والكتابات القديمة في الوطن العربي، تونس، 1988، ص131.**
(5) **Montagne (R), Villages et Kasbas Berberes, Paris 1930, P143.**
أنظر أيضا أيوب (عبد الرحمان)، نفس المرجع، ص 130 – 133.
(6) **Godard (M), l'Oasis moderne, essai d'urbanisme saharien, Paris, 1953, P 13.**
([7]) **حملاوي (علي)، قصور منطقة جبال عمور، (من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر الهجري)، رسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة، جامعة الجزائر، 1999–2000، ص61.**
(8) **Despois (J), les greniers fortifiés de l'Afrique du Nord, Les Cahiés de Tunisie, R.S.H,**
Publie par l'Institut des Hautes études de Tunis, T1, 1953, P39
(9) **Ibid, PP 39 - 42**
([10]) **أيوب (عبد الرحمان)، نفس المرجع، ص 131.**
(11) **Despois (J), Les greniers …, P 40**
(12) **Ibid, PP 40 - 42**
(13) **Ibid, P 43**
([14]) **أيوب (عبد الرحمان)، نفس المرجع، ص 131.**
(15) **Despois (J), les greniers …, P 45.**
(16) **Despois (J), La bordure Saharien de l'Algérie orientale, R.A 1892, PP 211-214.**
(17) **Pottier (R), Histoire du sahara,paris,1947, PP 124-125.**
(18) **Montagne (R), Villages et Kasbas Berberes, Paris 1930, P143.**
أنظر أيضا أيوب (عبد الرحمان)، نفس المرجع، ص 130 – 133.
(19) **Depois (J), Le Djebel Neffoussa, étude géographique, Paris, 1935, P 57**
(20) **Louis (A), Tunisie de sud Ksars et villages de cretes, C.N.R.S, Paris, 1975, P 30**
(21) **Terrasse (H), Kasbas berberes de l'Atlas et des Oasis, les grandes architectures du sud marocain, France, 1938, P73**
(22) **Martin (A.G.P), à la frontière du Maroc, les oasis sahariennes (Gourara, Touat, Tidikelt), Alger, 1908 PP25-59**
(23) **Quenard (C), "Recherches historiques dans le touat Gourara", B.L.S N°:02, 1955,PP19-29**
([24]) **أيوب (عبد الرحمن)، نفس المرجع، ص 133– 134.**

(25) **Echallier (j.C), Villages désertes et structures agraires anciennes du touat, gourara (Sahara algérien), A.M.G, Paris 1972, PP 27-87**

(26) **Quenard (C), " Recherches…,PP19-29.**

(27) أيوب (عبد الرحمن)، نفس المرجع، ص133-144.

(28) للمزيد من المعلومات حول أنماط القصور

أنظر: حملاوي (علي)، قصور ...، ص 41-54.

(29) **Echallier (J.C), Villages …, P 29**

(30) ابن الربيع (شهاب الدين)، سلوك المالك في تدبير الممالك، دراسة وتحقيق ناجي التكريتي،ط1، بيروت- باريس 1958، ص152.

(31) الموسري (مصطفى عباس)، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية، العراق، 1982، ص123.

(32) **Godard (M), L'oasis …, P 47**

(33) الموسري (مصطفى عباس)، نفس المرجع، ص221.

(34) **Projet de rénovation de Mestaoua, Direction de l'urbanisme et de la construction de la W. Ouargla, 1997, P 65.**

(35) المرجع السابق، ص210.

(36) الوزان (حسن بن محمد)، وصف إفريقيا،ترجمة محمد حجي،الطبعة الثانية، دار المغرب الإسلامي، بيروت،1983، ص135.

(37) الزبيري (محمد العربي)، التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة مابين 1798-1830، الطبعة الثانية المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر، 1984 ص156.

(38) **Emerit (M), les liaisons terrestres entre le soudan et l'Afrique du nord au et dèbut Siècle T.I.R.S,TxI,Alger,1954, P 39**

(39) مزهودي (مسعود)،الإباضية في المغرب الأوسط،جمعية الثرات بالقرارة غرداية، الجزائر،1996، ص131.

(40) **Dévise (J), Routes de commerce et èchanges en Afrique occidentale en relation avec la mèditerranèe ,R.H.E.S, P 45**

(41) الموسري (مصطفى عباس)، نفس المرجع، ص208.

(42) **Godard (J), l'Oasis …, P 13**

(43) **Piesse (L), l'Algérie etTunisie,Paris ,1890, P 322**

(44) البلاذري، فتوح البلدان، القاهرة، 1932، ص275.

(45) **Bachminski (J), Quatre Djemâa des Ksours du sud ouest algérien, Université de Science et de la Aechnologie d'Oran, Alger, 1985, PP 6-18.**

(46) الثميني (عبد العزيز)، التكميل لبعض ما أخل به كتاب النيل، صححه الثميني (محمد)، تونس، 1944، ص29.

(47) الموسري (مصطفى عباس)، نفس المرجع، ص 228.